قصة آية

3

الغدر والخيانة

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد

إشراف : أ. حمدى مصطفى

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

الغدر والخيانة

قالَ (تعالى) :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

[البقرة : ٨٩ ، ٩٠]

مُنْذُ زمنٍ بعيدٍ ، وقبْلَ بعْثةِ الرَّسولِ ﷺ ، كانَ اليهودُ يعيشُونَ في المدينةِ المنوَّرةِ التي كانتْ تُسمَّى « يثرب » آنذاكَ .

ومِنْ وقْتٍ لآخَر كانتْ تنْشبُ الْحُرُوبُ والصّراعاتُ بيْنَ الْعرَبِ والْيهُودِ لأَسْبابٍ كَثِيرةٍ ومُتَعدِّدَةٍ ، فقدْ كانَتِ الظُّرُوفُ الاجْتِماعِيَّةُ تُحتِّمُ هذه الْحرُوب ، ويبْدُو أنَّ الْيهُود وما عُرِفَ عنْهُمْ مِنْ حُبٍّ شديدٍ للْمالِ كانَ لهُ أكْبرُ الأَثَرِ فى ذلكَ ، حيْثُ كانُوا يَسْتَغِلُّونَ أهْلَ الْمدينةِ ويَقُومونَ بخداعِهِمْ .

ولمْ تكُنِ الْمعارِكُ تنْتَهِى لصالِحِ الْيهُودِ ، فقدْ كانوا قِلَّةً قليلةً ، كما كَانُوا يَتَّصِفُونَ بالْجُبْنِ الشَّديدِ فلا يقْدِرونَ على مُواجهةِ الْعَرَبِ أوِ التَّصدِّى لهمْ .

واجْتمعَ الْيهودُ ليَتدارسُوا الأَمْرَ ، ويبحثوا عنِ السَّبَبِ فى هزائمِهم الْمُتكَرِّرَةِ ، وما السَّبيلُ

للانتصار على القبائل العربية وخاصة قبيلة غطفان التى كان لها الباع الأكبر فى هزيمة اليهود ؟

قال أحدهم :

- إلى متى سنظل نتجرع كأس الذل والهوان ؟

وقال آخر :

- لقد جربنا كل الحيل والألاعيب ، ومع ذلك لم ننتصر على العرب .

وفجأة انتفض أحدهم وقال :

- جاءتنى فكرة ، سوف تخلصنا من هؤلاء العرب وتؤمننا جانبهم .

فتساءل الحاضرون فى دهشة :

- ما هى ؟ أسعفنا بها .

فقال فى ثقة :

- نحنُ أَهلُ كِتابٍ ، أَنزَلَ اللَّهُ إِلَينا التَّوراةَ .. أَلَيسَ كذلكَ ؟

فقالُوا :

- بَلَى ! ولكنْ ما علاقَةُ ذلكَ بما نَتَحدَّثُ عَنهُ ؟

فأَجابَ :

- لوْ تدبَّرتُم آياتِ التَّوراةِ لما سَأَلْتُم مِثلَ هذا السُّؤالِ . لقدْ حدَّثَتْنا التَّوراةُ عنْ نبيٍّ آخرِ الزَّمانِ ، يأْتي مِنَ العَرَبِ واسمُهُ أَحمدُ ، وهوَ مِنْ أَحبِّ أَنبياءِ اللَّهِ ورسُلِهِ إِلى اللَّهِ .

وأَضافَ قائلاً :

- وتُحدِّثُنا التَّوراةُ كذلكَ أنَّ قَومَهُ سيُكذِّبونَهُ ويُحارِبونَهُ ويُخرِجونَهُ مِنْ بيتِهِ .

أَدْرَكَ الحاضِرونَ مغزَى كلامِ الرَّجُلِ ، فشَعَروا بالسَّعادَةِ والاطمئنانِ وانبرَى أَحدُهُم يقولُ :

ـ نعمْ ، يجبُ أنْ نسألَ اللّهَ بحقِّ نبيِّهِ الْخاتمِ أَنْ ينْصُرنا . كما يَجبُ أَنْ نُخْبِرَ الْعربَ بأَمْرِ هذا النَّبيِّ وما سَيَكونُ منْهُمْ .

وأَضافَ :

ـ وعنْدئذٍ سوْفَ نؤْمنُ به ، ونكُونُ من أتْباعه حتى يُكْتَبَ لنا النَّصْرُ على أعْدائنا .

وفى اللِّقاءِ الْحاسمِ بيْنَ اليهودِ والْعَربِ ، دعا الْيَهودُ اللّهَ (عزَّ وجلَّ) وتَضرَّعوا إليه قائلينَ :

ـ اللَّهُمَّ إنَّا نسْألُكَ بحقِ النَّبىِّ الأُمِّىِّ الذى وعدْتَنا أَنْ تُخْرجَه لنا فى آخرِ الزَّمانِ أَنْ تنصُرنا عليْهِمْ .

ولمْ يَخْذلْهُمُ اللّهُ هذه الْمرَّةَ فانْتَصرُوا نَصْراً مؤَزَّرا على قبيلة غطْفانَ .

وتكرر الدعاء وتكرر النصر كذلك ، حتى إن اليهود أخذوا يدعون الله ويلحون فى الدعاء أن يبعث الرسول ﷺ حتى يتبعوه ويقاتلوا العرب والمشركين معه .

وشاء الله أن يبعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ، وأمره أن يدعو الناس كافة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله .

وامتثل الرسول ﷺ لأمر ربه ، فدعا العرب واليهود والنصارى ، وأرسل رسله إلى البلاد المجاورة .

أما العرب فكان من أمرهم ما هو معروف ، فقد حاربوه ﷺ وآذوه ، ولم يؤمن منهم إلا قليل ، وحدثت معارك عديدة بين الفريقين حسمت فى النهاية لصالح الحق والعدل والخير .

وأَمَّا الْيَهُودُ .. فكانَ أَمْرُهُم عَجَبًا وَيَدْعُو إلى الدَّهْشَة . لقد رأَيناهُم مُنْذُ قليلٍ يعترفُونَ برسالة مُحَمَّد ﷺ ، ويدعُونَ اللَّه (عزَّ وجلَّ) أنْ يبعثَه حتى يتبِعُوهُ ويُحارِبُوا معهُ الْعَربَ والْمُشركين .

وهَا هُوَ ذا الرَّسُولُ ﷺ يدعُوهُم بالْحُسنى ويُجادِلُهُم بالَّتى هى أَحْسَن ، ويُخبِرُهُم أنهُ رسُولُ اللَّه إِلى النَّاس جميعا ، وأَنَّه مذْكُورٌ بأَوْصافه فى التَّوْراة ، ويطْلُبُ منهُم أَنْ يصدِّقُوهُ ويؤْمِنُوا برِسالَتِه حتى ينالوا رِضْوانَ اللَّه (عزَّ وجلَّ) .

وانْقَلبَ موقفُ الْيهُود من الضِّدِّ إلى الضِّدِّ ، فبَعْدَ أَنْ كانوا ينْتظرُونَ بعثةَ النَّبىِّ ﷺ بفارِغِ الصَّبْرِ ، إِذا بهم يُكذِّبُونَه ويتآمرُونَ ضِدَّهُ ويتحالَفُونَ مع الْعَرَبِ والْمُشْرِكين ضِدَّهُ (صَلَواتُ ربِّى وسَلامُهُ عليْه) .

لقد امتلأت قلوبهم بالغيظ والحسد للرسول ﷺ .

وقال بعضهم لبعض :

– لقد كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فما بال هذا النبى من العرب ؟

وقالوا :

– لو كان هذا النبى من بنى إسرائيل لاتبعناه ولنصرناه . .

وقالوا الكثير والكثير ، مما يدل على طبيعة نفوسهم ، حيث يكذبون على أنفسهم وعلى الناس ، ولو صدقوا مرة واحدة مع أنفسهم ، وتجردوا من مشاعر الحقد والكراهية ، لآمنوا برسالة محمد ﷺ ، لأنها امتداد للرسالات السماوية السابقة ، وهى خاتمة الرسالات التى

تضمنت حقائق الوجود وحقائق الحياة بالتفصيل الإلهى المبين .

وأراد الله (عز وجل) أن يكشف موقف اليهود أمام الرسول ﷺ وأمام المسلمين وأمام الناس جميعا ، فأنزل قوله (تعالى) :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

[البقرة : ٨٩]

إن الكتاب الذى دعاهم محمد ﷺ إلى الإيمان به هو من عند الله ، فالله هو الذى أنزله للعالمين ، وهو كتاب معجز فى نظمه ومعانيه وقصصه وأخباره ومواعظه ، ولا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو بآية من آياته .

وهذا الْكتابُ الْكريمُ يأمُرُ بالْعدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذى الْقُربى وينْهى عنِ الْفحْشاءِ والْمُنْكرِ والْبغْيِ ، وهو نفْسُ ما تأمُرُ به وتدْعو إليه كُلُّ الْكُتُبِ السماويةِ السابقةِ ..

فعلامَ يعجبُونَ ؟

إنَّ الشىْءَ الْغريبَ حقًّا هو أنْ يُكذِّبَ الإنْسانُ شيْئًا وهو على يقينٍ من صدْقِه ، وهلْ يسْتطيعُ أحدٌ أنْ ينْكرَ ضوءَ الشَّمسِ ؟

ربَّما كانَ للْعربِ عُذْرٌ فى موْقفِهمْ ، لأنهمْ كانوا أُمِّيِّينَ لا يعْرفونَ الْقراءةَ ولا الْكتابةَ ، ولكنْ ما عُذْرُ الْيهودِ وهمْ أهْلُ كتابٍ أنْزلَ اللَّهُ عليهمُ التَّوْراةَ وقصَّ عليهمْ فيها عنْ مُحمَّدٍ ﷺ خاتمِ الأنبياءِ والْمُرْسلينَ ،

وَأَخْبَرَهُمْ عَنِ الْقرآن الْكَرِيمِ .. فكَيْفَ لا يُصَدِّقُون

به ولا يُؤْمنون بِالْحق ؟

إِنَّ الإِجَابَةَ عَنْ هذا السُّؤَالِ تَجِيءُ عَلَى لِسَانِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ أَحَدِ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وكَانَ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ ، وقَدْ هَدَاهُ اللهُ لِلإِسْلامِ ..

ذاتَ مَرَّةٍ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ :

- إِنَّ الْيَهُودَ أَهْلُ بُهْتٍ وضَلالٍ - أي أَهْلُ كَذِبٍ - كأَنَّ الْكَذِبَ طَبِيعَةٌ فِيهِمْ .

وأَرادَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلامٍ أَنْ يُثْبِتَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صِدْقَ مَا يَقولُ فَطَلَبَ مِنْهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْيَهُودَ عَنْهُ وعَنْ مَكَانَتِه بينَهُمْ بِشرْطِ أَلا يُخْبِرَهُم بِنَبَإِ إِسْلامِه .

وعِنْدَمَا سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ عَنْ مَكَانَةِ

عبْدُ اللَّهِ بنِ سَلامٍ بينَهُمْ قالوا في إجْماعٍ :

ـ إنَّهُ عالمُنا وابْنُ عالمنا وسيِّدُنا وابْنُ سيِّدنا .

فقال ﷺ :

ـ أفرأيْتُم إنْ أسْلَم أفتُسْلِمُونَ ؟

فقالُوا :

ـ حَاشَا للَّهِ ، ما كانَ ليُسْلِمَ ، أَعاذَهُ اللَّهُ من أَنْ يُسْلِمَ .

وعنْدئذٍ خرجَ عبدُ اللَّهِ بنُ سلامٍ على هؤُلاءِ الْيَهُودِ وقالَ لهمْ :

ـ يا معْشَرَ الْيَهودِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، واقْبَلوا ما جَاءَكُمْ بِهِ محمدٌ ﷺ ، فإني أَشْهَدُ ألاَّ إلهَ إلاَّ اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ .

ثُمَّ أَضَافَ قائلاً :

- فَوَاللَّهِ إنكُمْ لَتعلَمُونَ أَنَّهُ رسُولُ اللَّه ، وتَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عنْدَكُمْ فى التَّوْرَاةِ باسْمِهِ وصِفَتِهِ .

وفى إِجْمَاعٍ كذلك تَغَيَّرَ موقفُ الْيَهُودِ من الضِّدِّ إِلَى الضِّدِّ فَقَالُوا :

- واللَّهِ إِنَّكَ لَشَرُّنَا وابْنُ شَرِّنَا ، وجَاهِلُنَا وابْنُ جَاهِلِنَا .

وعنْدَئذ انْدَهَشَ الْحَاضِرُونَ لِطَبِيعَةِ الْيَهُودِ الْعَجِيبَةِ ، والْتَفَتَ عبدُ اللَّه بن سَلَامٍ إِلى الرَّسُولِ ﷺ وقالَ :

- أَلَمْ أَقُلْ لكَ يا رَسُولَ اللَّه : إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمُ بُهْتَانٍ وبَاطِلٍ ، وإِنَّهُم أَهْلُ غدْرٍ وخِيَانَةٍ ؟

إِنَّ الْمُسْلِمَ يجبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ هذه الْقِصَّةِ

الْكثَيرِ والْكثيرِ . فَيجبُ أنْ نحْذَرَ منَ الْيهُودِ ونعْلَمَ أنَّ الْكذبَ طبِيعةٌ فِيهِم وأنَّ الْغدْرَ والْخيانَةَ من أهَمِّ صفاتِهِمْ . ولَعلَّ ما يفْعلونَهُ فى فلسْطينَ الْمُحْتلَّةَ والْقُدْسِ الشَّريفِ خَيْرُ دليلٍ على ذلكَ .

كما يَجبُ أنْ نتحلَّى بالصِّدْقِ والإخْلاصِ فى الْقَوْلِ والْعَمَلِ ، وأَنْ نكُونَ على يَقينٍ بأنَّ الْقُرْآنَ حقٌّ لا يأْتيهِ الْباطِلُ منْ بيْنِ يدَيْهِ ولاَ منْ خَلْفِهِ ، وأنَّ مُحمداً ﷺ هو خاتمُ الأَنْبِياءِ والْمُرْسَلين ، بلَّغَ الرِّسالَةَ وأدَّى الأَمانَةَ ونصحَ الأُمَّةَ وجَاهَدَ فى سَبيلِ اللَّهِ حقَّ جِهادِه حتى أتَاهُ الْيقينُ .

وعلى الْمُسْلِمِ أَنْ يُوقِنَ بِأَنَّ الإِسْلامَ هو دِينُ الْحَقِّ الذى أَخْرَجَ اللَّهُ به النَّاس مِنَ الظُّلُمات إلى النُّورِ ، فلا بَديلَ له لِكَىْ يَنْصَلِحَ حَالُنَا وتَسْتَقِيمَ أُمُورُنا .

رقم الإيداع : ١٧٤٧٧

الترقيم الدولى : ٧ - ٣٦٢ - ٢٦٦ - ٩٧٧